

العدول الصرفي تواضع جديد

أ. عبد الناصر مشري

جامعة قاصدي مباح - ورقلة (الجزائر)

ملخص :

يرتبط مصطلح الدلالة الوضعية بالمعاني المعجمية لمفردات اللغة أكثر من اعتناقه بينها الصرفية ، لكن المعنى المعجمي - في الحقيقة - ليس إلا دليلا أوليا أو قل خامة غشيمة من الدلالة تنهض الصيغة الصرفية بتخصيصها و توجيهها لتحقيق جميع وظائف اللغة في اقتصاد كبير لفونيماتها، لكن إذا كان الخروج عن أصل الوضع في الدلالة المعجمية (المجاز) صميما في البلاغة أفلا يكون العدول في صيغ المفردات بلاغة كذلك و من ثم يمكن الحديث عن بلاغة صرفية إذا جاز هذا التعبير؟، ثم لم لا يكون هذا العدول تواضعا جديدا تستمد منه اللغة تخلقها؟

Résumé:

Au delà de sa relation avec la structure morphologique, La sémantique lexicale est généralement liée au sens dictionnaires. En fait, le sens dictionnaire n'est qu'une matière sémantique première dont la structure morphologique accorde la spécificité pour actualiser toutes les fonctions de la langue en toute économie de ses phonèmes.

L'écart lexical (le sens figuré) est considéré comme noyau de la rhétorique, peut-on dire que l'écart au niveau de la structure morphologique est aussi une nouvelle forme rhétorique ? Peut-on parler d'une « rhétorique morphologique » ? Cet écart, peut-il être une nouvelle convention d'où la langue tire sa dynamique

يهدف هذا البحث إلى رصد ظاهرة "العدول الصرفي" (1) التي تتعاورها علوم كثيرة؛ أهمها علم الصرف الذي تُعد بنية الكلمة صميمه و بُؤرته ، ثم البلاغة باعتبار امتداد مساحة المعنى أو انحسارها بين الصيغة المعدول إليها و الصيغة المعدول عنها، ثم التداولية بالنظر إلى أنّ العدول كثيرًا مل تقتضيه ظروف الخطاب و بيئته أو وضع المخاطب حيال منشى الخطاب لأن « المتكلم بعامة يكيف صيغة خطابه بحسب أصناف الذين يخاط» (2) ، و كذا علما الأصوات و العروض لما بين البنى من اختلافات في الوزن و الإيقاع .

و لما كانت الصيغة الصرفية هي الرافد الثاني لمعنى الكلمة - بعد جذرها- كان بديهيًا أن تحظى بالعناية نفسها التي حظيت بها دلالة الكلمة معجميًا، و أن ينهج علماء الصرف نهج علماء المعجم في تقفي دلالات البنى و الصيغ فيما يمكن أن نسميه المعجم الصرفي ، فكان أن استقرّوا الصيغ في النصوص و رصدوا دلالاتها و معانيها و وضعوا في ذلك المصنفات الكثيرة ، و كانت خلاصة عملهم أن ضبطوا استعمالات الصيغ و حددوا لكل منها معنى أو جملة معانٍ فقالوا مثلًا إنّ بنية "تفاعل" « للاشتراك في الفاعلية لفظًا و فيها و في المفعولية معنى ... و لإظهار حصول ما ليس بحاصل ، و مطاوعة "فَاعَل" ، و أنّ " افعل" و "افعال" للألوان و أن " افْعَوْل" للمبالغة و الصيرورة و موافقة "استفعل" و أنّ " استفعل" للطلب و التحول و الاتخاذ... و الإلقاء و مطاوعة " أفعل" و موافقة " تفْعَل" و "افتعل"»... إلخ(3).

و كما كان المنهج واحدًا في رصد الداليتين المعجمية و الصرفية كانت النتيجة واحدة في انتهاكهما من قبل الاستعمال ، ذلك أن الدلالة المعجمية كثيرًا ما خرمها الاستعمال و واقع اللغة تحت سلطة السياق فكان الترادف و المشترك و التضاد و غير ذلك من العلاقات الدلالية المعروفة ، و بالمثل كان حال الدلالة الصرفية التي عرفت ظاهرة العدول عن المعنى النمطي (الأصلي) الذي حددته قواعد الصرف لكل صيغة إلى معانٍ كثيرة تستشف من خلال السياق.

و سواء أكان العدول بين الصيغ لغاية بلاغية أو إيقاعية أو تداولية أو غير ذلك من حاجات الخطاب فإنه في النهاية حقيقة في اللغة و واقع معلوم فيها ؛ ذلك أن « من سنن العرب أن تأتي بالفعل بلفظ الماضي و هو حاضر أو مستقبل أو بلفظ المستقبل و هو ماضٍ ؛ نحو " أتى أمرُ الله " أي يأتي.. و " اتبعوا ما تتلوا الشياطينُ على مُلك سُلَيْمَانَ " أي ما تلت ، و أن تأتي بالمفعول بلفظ الفاعل نحو " سرُّ كاتم " أي مكتوم ، و

"ماء دافق" أي مدفوق ، و "عيشة راضية" أي مرضي بها و "حرما أمانا" أي مأمون فيه..» (4)

ولأن المقال ليس من غرضه حصر أنواع العدول و تعدادها فإننا نجتزئ بذكر نماذج قليلة نحاول من خلالها إقامة الدليل على ما نحن بصددته من رصد أسباب الظاهرة و مآلاتها في واقع اللغة .

1- العدول عن الصفة المشبهة إلى المصدر :

يقول فيه ابن جنبي « هذا رجل دئف ، و قوم رضًا ، و رجل عدل .. فإن وصفته بالصفة الصريحة قلت: "رجل دئف" ، و قوم مرضيون و رجل عادل هذا هو الأصل و إنما انصرفت العرب عنه في بعض الأحوال إلى أن وصفت بالمصدر لأمرين: أحدهما صناعي و الآخر معنوي ؛ أما الصناعي فليزيدك أنسا بشبه المصدر للصفة التي أوقعته موقعها .. و أما المعنوي فلأنه إذ وصف بالمصدر صار الموصوف كأنه في الحقيقة مخلوق من ذلك الفعل ، و ذلك لكثرة تعاطيه له و اعتياده إياه » (5) ، وقال فيه ابن مالك:

و نعتوا بمصدر كثيرا فالتزموا الأفراد و التنكير

2- العدول عن اسم الفاعل إلى المصدر :

قال فيه سيبويه « إن العرب تقول ماء غور و مجازه غائر ، و رجل عدل و مجازه عادل و أتيتهم ركضًا و مجازه راكضًا و مفازة قفر أي مقفرة ، ما أنت إلا نوم ، و ما زيد إلا أكل و شرب ، و إنما أنت دخول و خروج ، و بنو فلان لنا سلم أو هم علينا حرب..» (6) و ساق في ذلك قول الخنساء:

ترتع ما رتعت حتى إذا ادكرت فإنما هي إقبال و إدبار (7)

و من شواهد ابن يعيش في هذا الباب قول الشاعر:

فإن ترفقي يا هند فالرفق أيمن و إن تخرفي يا هند فالخرق أظلم (8)
فأنت طلاق و الطلاق عزيمة ثلاثًا و من يخرق أعق و أظلم (8)

3- العدول عن اسم المفعول إلى اسم الفاعل:

مثاله من القرآن قوله تعالى " في عيشة راضية " الحاقة الآية 21 ، " خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ " الطارق الآية 6 ، لَأَعَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ

و من الشعر قول الحطيئة يهجو الزيرقان بن عمر:
دع المكارم لا ترحل لبغيتها و اقع فإتك أنت الطاعم الكاسي⁽⁹⁾

4- العدول عن اسم الفاعل إلى اسم المفعول:

منه قوله تعالى « فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَ بَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ حِجَابًا مَسْتُورًا » الإسراء ، الآية 45 ، « جنات عدن التي وعد الرحمن عباده بالغيب إنه كان وعده ماثيا» مريم الآية 61 ، و العرب تقول سيل مُفَعَمٌ و مجازه مفعم ، مررنا بقوم موطئين مجازه واطئين ...⁽¹⁰⁾

5- العدول عن المفرد إلى المثنى :

تقول العرب "افعل ذلك" و المخاطب واحد ، قال تعالى : « ألقيا في جهنم كل كفار عنيد » ق الآية 24 ، و المخاطب مالك خازن النار
قال امرؤ القيس :

فقا نيك من ذكرى حبيب و منزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل
و قال الأعشى :

وصل على خير العشيات و الضحى و لا تعبد الشيطان و الله فاعبدا⁽¹¹⁾

5- تذكير المؤنث و تأنيث المذكر :

« من سنن العرب ترك حكم ظاهر اللفظ و حمله على معناه : فيقولون ، ،
ثلاثة أنفس و النفس مؤنثة ، و إنما حملوه على معنى الإنسان أو الشخص ، قال
الشاعر :

ما عندنا إلا ثلاثة أنفس مثل النجوم تلالأت في الحنـدس

و قال الآخر: فكان مجني دون ما كنت أتقي ثلاث شخوص؛ كاعبان و معصر
و قال رويشد بن كثير الطائي:

يا أيها الراكب المزجي مطيه سائل بني أسد ما هذه الصوت؟

و جاء في التنزيل « و اعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرًا» الفرقان الآية 11 ، ثم قال «
رأتهم من مكان بعيد» و السعير مذكر، و قال " السماء منفطر به " المزمّل الآية 18 و
السماء مؤنث⁽¹²⁾.

هذه نماذج قليلة جدا لنصوص كثيرة تمنعها الكثرة و الاطراد من أن تحمل على الشذوذ تم فيها تجاوز الدلالة الأصلية للبنية الصرفية إلى دلالات أخرى ، و هي و إن كانت تحمل على شجاعة العربية التي قال فيها الجاحظ « للعرب إقدام على الكلام ثقة بفهم أصحابهم »⁽¹³⁾ فإنها تبقى انحرافا لغويا قمينا بالبحث في دوافعه و مآلاته ، و إذا كنا نهتم هنا بنتائجه و مآلاته أكثر من اهتمامنا بدوافعه فإنه لا بأس من أن نذكر جانباً من أسبابه ثم نخلص في الأخير إلى بعض نتائجه.

أهم أسبابه:

1- الجانب البلاغي:

يتجلى في اتساع مساحة المعنى أو انحسارها بين الصيغة المعدول عنها و الصيغة المعدول إليها تبعاً لحاجة المتكلم كما مرّ معنا في العدول من الصفة المشبهة إلى المصدر في قول العرب رجل عدل و قوم رضا أو في العدول عن " فَعِيل " إلى "فُعَال" في قول نوح عليه السلام «.. و مكروا مَكْرًا كُبْرًا» « سورة نوح : الآية 22 ، أو في العدول عن المضارع إلى الماضي في قوله تعالى « أتى أمر الله » سورة النحل الآية 1 ، لأن « مواضع اللغات في مبدأ النشأة أن يكون لكل دال مدلول واحد و لكل مدلول دال واحد »⁽¹⁴⁾ فإذا عدل بالدال عن مدلوله لم يكن ذلك العدول عفويًا إذ لا بد من غاية تلجئ المتكلم إلى الانحراف عن القاعدة و هي ابتداءً غاية معنوية.

2- الجانب الإيقاعي:

للإيقاع حضوره القوي في ظاهرة العدول لأن المتكلم كثيراً ما يعدل عن صيغة إلى أخرى طلباً لإيقاع معين و مظان ذلك الفاصلة القرآنية و قافية الشعر⁽¹⁵⁾ مثال الأولى كثير في القرآن و بخاصة السور القصار من ذلك مثلاً العدول عن "تَفَعُل" إلى "تفعيل" في قوله تعالى: « إنا سئُلقِي عَلَيكَ قَوْلًا ثَقِيلًا » «إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَ أَقْوَمُ قِيلًا» « إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا » « وَ اذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَ تَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا » سورة المزمل ، إذ عدل عن "تَبَتَّلْ" وهي بوزن " تَفَعُلْ " إلى "تَبْتِيلًا" وهي بوزن " تَفَعِيلًا" لإقامة الفاصلة مع ما قبلها قليلاً ، ترتيلاً ، ثقيلاً ، قِيلاً ، طويلاً ، تبتيلاً و مع ما بعدها وكيلاً ، جميلاً ، قليلاً ، و من الشعر قول الحطيئة المتقدم الذي عدل فيه عن اسم المفعول "المطعم" ، "المكسو" إلى اسم الفاعل "الطاعم" "الكاسي" لتستقيم له القافية.

3- الجانب التداولي:

إذا كان « المتكلم بعامة وكيف صيغ خطابه بحسب أصناف الذين يخاطبهم»⁽¹⁶⁾ و إذا كان للظروف الاجتماعية و النفسية العائدة إلى حضور أشخاص آخرين أثناء الخطاب أو استحضارهم في خيال المتكلم دور في لغة النص⁽¹⁷⁾ فإنه لا يمكن بحال من الأحوال أن نعتبر الباث حراً في تشكيل خطابه لأنه كثيراً ما يعدل عن صيغة إلى أخرى بداعي التلطف في العبارة ، أو يخاطب نفسه بدلاً من مواجهة الآخر ، أو يجاري خصمه حسماً للعناد فيجري خطابه وفق هواه مما يلجؤه إلى العدول عن الخطاب إلى الغيبة أو عن الأمر إلى الماضي أو عن مخاطبة المفرد إلى الجماعة أو نحو ذلك مما تستوجب ظروف المكان أو الزمان أو المخاطبين.

و ثمة سبب آخر وجيه فطن إليه القدامى و كان مدار حجاج بينهم و هو دفع الملل و شد انتباه المخاطب لأن «الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان أحسن تطرية لنشاط السامع و إيقاظاً للإصغاء إليه»⁽¹⁸⁾

و من المحدثين من اعتبر « الانحراف حيلة مقصودة لجذب انتباه القارئ »⁽¹⁹⁾ و أن « المفاجأة هي أهم ما في الانزياح »⁽²⁰⁾.

و أياً ما كانت الأسباب فإن واقع اللغة يثبت أن الدلالة النمطية الصرفية ليست دائماً محترمة بل لعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن النصوص الإبداعية بإضافة كثيراً ما تخرم فيها الدلالة النمطية و ذلك بسبب هيمنة الوظيفة الجمالية للغة على باقي الوظائف.

المآلات و النتائج:

إن منشئ الخطاب حين يعدل عن صيغة إلى أخرى سواء أكان مضطراً أم مختاراً فإنه من وجهة نظر صرفية بحتة أي باعتبار الدلالات التي حددها علماء الصرف لصيغ الكلمة ، لا يمكن أن يحمل كلامه إلا على محمل المجاز دون الحقيقة لأن تعدد الدوال على المدلول الواحد مجاف للحكمة و لأصل الوضع كما ذكر ابن درستويه « في اللغة الواحدة محال أن يختلف اللفظان و المعنى واحد»⁽²¹⁾. و لكن « كثرة الاستعمال المجازي للصيغة تفقدها الدلالة المجازية و تجعل الصيغتين المعدول عنها و المعدول إليها بمثابة المترادفين و بذلك تتعدد الصيغ على المعنى الواحد»⁽²²⁾.

و من ثم فإن النتيجة الأولى للعدول الصرفي هي نشوء الترادف بين الصيغ الصرفية تماماً كما الحال في المفردات ، ثم إن المفاجأة التي عليها مدار العدول سرعان ما يأتي

عليها الاستعمال فيحيلها واقعا مكرورا و صورة باهتة ليست بأكثر جاذبية من الأصل و ليس فيها ما يشد انتباه السامع أو يوقظ فيه الإصغاء لأن « الطاقة التأثيرية للخاصية الأسلوبية تتناسب عكسا مع تواترها»⁽²³⁾.

و من ثم تمس الحاجة مرة أخرى إلى عدول جديد هو عدول عن العدول و لم لا يكون عدولا إلى الأصل ، و هكذا تستمر اللغة في تخلق غير متناه تغذيه الحاجة التواصلية لدى كل من طرفي الخطاب و بخاصة الطرف المرسل الذي يحاول ما وسعه الجهد إضفاء الجدة على خطابه بالانحراف عن المؤلف إلى اللامألوف في سعي منه حثيث إلى تواضع جديد يستميل إليه المتلقي ، و إذا كان أصل اللغة -كما عليه الجمهور - تواضعا فما يمنع العدول أن يكون تواضعا جديداً؟

الهوامش:

- 1- نقصد بالعدول الصرفي ترك صيغة صرفية بمقتضيها السياق إلى صيغة أخرى تشترك معها في تأدية معناها العام و تفضلها بوجه من الوجوه في السياق الذي ترد فيه كاستعمال المصدر في موضوع اسم الفاعل ، أو اسم الفاعل في موضع اسم المفعول ، أو الماضي بدلا من المضارع... ، و للعدول الصرفي مرادفات أخرى منها: الانزياح ، الانحراف ، التجاوز ، الاختلال ، الإطاحة ، المخالفة ، الشناعة ، الانتهاك ، خرق السنن ، اللحن ، العصيان ، التحريف. ينظر: عبد السلام المسدي ؛ الأسلوبية و الأسلوب ، دار الكتاب الوطنية ، بنغازي ، دار الكتاب الجديد ، لبنان ، ط 5 ، 2006 ، ص 80.
- 2- نفسه : ص 63 ، 64.
- 3- ابن هشام ؛ نزهة الطرف في علم الصرف ، تح أحمد عبد الحميد هريدي ، مكتبة الزهراء ، القاهرة ، 1990 ، ص 112 ، 113.
- 4- السيوطي ؛ المزهرة ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، 1987 ، 335/1.
- 5- ابن جني ؛ الخصائص ، تح محمد علي النجار ، القاهرة ، دار الكتب المصرية ، 1952 ، 259/3 ، 260.
- 6- سيبويه ؛ الكتاب ، تح عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة 1988 ، 336/1 ، 43/4 ، 337.
- 7- الخنساء ؛ الديوان ، تقديم إسماعيل يوسف ، دار الكتاب العربي ، دمشق ، د.ت ، ص 53.
- 8- ينظر: ابن يعيش ؛ شرح المفصل ، عالم الكتب ، د.ت ، 49/3.
- 9- الحطينة ؛ الديوان.
- 10- ينظر: ابن جني؛ الخصائص ، مصدر سابق ، 448/2.

- 11- ينظر: الثعالبي؛ فقه اللغة و سر العربية ، تح فائز محمد ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، 2006 ، ص 254.
- 12- نفسه: ص 256.
- 13- الجاحظ ؛ الحيوان ، تح عبد السلام هارون ، ط1 ، مطبعة البابي الحلبي ، القاهرة ، 1938 ، ص 3215.
- 14- ينظر: 1) la stylistique, p 58 : Pierre Guiraud ; 2) Essais de stylistique p : 65,66,682
- عن المسدي ؛ الأسلوبية و الأسلوب ، مرجع سابق ، ص 48.
- 15- ينظر: محمد محروس؛ البنية الصرفية و أثرها في تغيير الدلالة ، دار البصائر ، القاهرة ، ط1 ، 2007 ، ص 62.
- 16- المسدي ؛ الأسلوبية و الأسلوب ، مرجع سابق ، ص 63.
- 17- ينظر: Charles Bally : traité de stylistique français, paris, klincksieck, 3^{eme} éd 1951, 1/12
- عن المسدي ؛ الأسلوبية و الأسلوب مرجع سابق ، ص 36.
- 18- الزمخشري ؛ الكشاف ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة ، ط2 ، 1953 ، 12/1.
- 19- ريفاتر (M.Riffaterre) ؛ عن عياد شكري؛ اللغة و الإبداع ، مبادئ علم الأسلوب العربي ، القاهرة ، 1988 ، ص 79.
- 20- أحمد محمد ويس ؛ الانزياح في التراث النقدي و البلاغي ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق 2002 ، 2007 ، ص 63.
- 21- ينظر: محروس محمد إبراهيم ؛ البنية الصرفية و أثرها في تغيير الدلالة ، مرجع سابق ، ص 68.
- 22- نفسه : ص 102.
- 23 - M.Riffaterre, essais de stylistique structurale, p.13
- عن الأسلوبية و الأسلوب ، مرجع سابق ، ص 68.